طفولتنا المسروقة !!!

بقلم الأستاذ س. ق

نحن نسرق فى كل يوم وفى كل ساعة طفولة أطفالنا ونحرمهم إياها بحجة أننا نربيهم ونعلمهم ونهيئهم للمستقبل. ونحن نؤذيهم بهذه السرقة ونفسد عليهم مرحلة من مراحل العمر العزيزة ، ثم نفشل مع ذلك فى تحقيق غرضنا لدى نرمى إليه لأننا نتجاهل أحكام الطبيعة ، ونقسر الفطرة البشرية على تخطى حلقات زمان .

ونحن دائبون على انضاج الأطفال قبل الأوان، تلهب خطاهم نحو التعقل والتوقر والتحلى بالفضائل ، ونحاول أن نكبت فى نفوسهم غرائز الأطفال ليصبحو رجالا ، وأن نملأ أذهانهم بالمعلومات ليصبحوا علماء، فتكون النتيجة أن يكرهوا الأدب والفضيلة ، وينفروا من العلم والمدرسة .

والوسائل التى نسرق بها طفولة هؤلاء المساكين كثيرة: فى مقدمتها ذلك النظام العسكرى الذى نأخذهم به فى حجرات الدرس ، وذلك الكبح الذى نثقلهم به على المقاعد ، بحيث يعد تململ الطفل على مقعده اخلالا بالنظام. أما تغييره هذا المقعد بتبادله مع زميل له فهو جريمة لا تغتفر . ويزيد على ذلك توقر المدرسين وتكشيراتهم التى تباعد بينهم وبين نفوس الأطفال البريئة وتقيم الحواجز العرقيل دون المحبة والبساطة والتعاطف بين المدرس والتلميذ.

أذكر فى السنوات التى قضيتها فى التدريس أننى لم أكن أحفل بتلك القيود ، وكنت أدخل الحجرة فأرى التلاميذ كالعصافير المحبوسة فى قفص وقد فتح بابه فاذا هى تنطلق فرحة بالحرية . وفى ما لا يزيد عن دقيقة كان معظم التلاميذ يغيرون مقاعدهم بالتبادل فيما بينهم ، ثم ينصتون مستعدين للدرس بشوق عظيم . وكأنما هذه الحركة مع شعورهم بالحرية فيها قد بثت فى نفوسهم نشاطا وحيوية وتفتحا يعوض على وعليهم هذه الدقيقة الضائعة .

وأذكر أن الحواجز المتكلفة لم تكن قائمة بينى وبين هؤلاء الأطفال ، فقد كانوا يبثوننى خواطرهم الصغيرة البريئة سرا وجهرا ، ويصافحوننى عند دخولى المدرسة فى الصباح وعند ما يلقوننى فى الطريق، ولم يكونوا يتكلفون فى حركاتهم معى وألفاظهم . وفى مرة دخل أحد حضرات المفتشين فوجد عند منصة الدرس بعض التلاميذ وأنا أصحح لهم كراسات الإملاء وهم واقفون حولى يتأملون التصحيحات فى كراسة أحدهم وقفة طبيعية غير متكلفة، وقد اتكأ

أحدهم على كتفى بمرفقه بينما الثانى لم تعجبه ربطة عنق فأخذ فى تعديلها قليلا! وثالث رأى بعض غبار الحكك على بذلتى فهو ينفضه بكفه الصغيرة ! وثلاثة ينظرون فى الكراسة التى أصححها .

وكان فى هذا العمل منى عدة مخالفات "للنظام" لا تغتفر : أولاها أننى جالس فى حجرة الدراسة ، وثانيتها أننى أصحح الكراسات فى الحجرة ، وثالثتها أن التلاميذ مجتمعون حولى ، ورابعتها أنهم لا يراعون (الأدب) فى وقفتهم وحركاتهم ... الخ .

ولولا أن كان هـذا المفتش أستاذا لى أيام الدراسة ، وكان يعلم عنى ثورتى على القيود الشكلية وجهرى بآراء جريئة فى التربية ، لساءت العاقبة وجاء "التقرير" سيئا وحقت علىّ العقوبة ، على الرغم من أن تجاربى الشخصية أثبتت لى أن كل كراسة تصحح فى غيبة صاحبها — وهو تلميذ صغير — لا يستفيد التلميذ من تصحيحها شيئا ، إذ يلقى باله إلى الدرجة التى نالها ولا يعنى بتتبع خطئه وإصلاحه ، وعلى الرغم من أننى وجدت الصلات الودية بينى وبين التلاميذ بلا كلفة ولا قيود — إلا قيود الأدب الواجب — هى فى مصلحة الدرس وفى مصلحة الأخلاق ، بل فى مصلحة "النظام" !

ونحن لا نزال نكبح نشـاط الأطفال العضوى فى البيت وفى المدرسة على السواء حتى فى أوقات الفسح المخصصة للعب والحركة ولا نزال نصنف التلميذ الساكن الساكت بأنه تلميذ مؤدب ونعت التلميذ الدائب الحركة والجرى والقفز بأنه تلميذ "شقى" فى حين أن الأول مريض يجب الفحص عن علته النفسية أو الجسدية ، والثانى صحيح سليم طبيعى فى حركاته الغريزية . وذلك أثر من آثار العقلية القديمة المتبعة فى "كتاب سيدنا" القائمة على سوء الظن بالفطرة الانسانية ووجوب قمعها بالكبت والزجر حتى لا ينطلق الشر الكامن فيها من عقاله !

فاذا تجاوزنا مسألة "النظام" وجدنا أننا نسرق طفولة الأطفال بوسيلة أخرى ، هى تلك البرامج المطولة الثقيلة المحشوة بمعلومات متناثرة لا تشويق فيها ولا حياة . تلك البرامج والامتحانات من ورائها تضطر المدرسين لإهاب ظهور التلاميذ الصغار والطلاب المراهقين بالحفظ والاستذكار لأنه لا وسيلة لتحصيلها — وهى هكذا مقتضبة متناثرة إلا الحفظ عن ظهر قلب ، والحفظ يستنفد طاقة عظيمة ، ومجهودا مضنيا وزمنا أطول ، فلا بد إذن من أن يشـغل التلاميذ جميع أوقاتهم بالاستذكار أو يرسبوا فى الامتحان . ومن هنا تنشأ لعنة "الواجبات المدرسية" التى يقضى فيها التلاميذ ما تبقى من النهار وزلفا من الليل .

ولست أتورع عن الجهر بأن كل برنامج مدرسى يكلف تلميذ المدرسة الابتدائية أن يستذكره فى المنزل بعد تمضية ثمانى ساعات فى المدرسة إنما هو برنامج فاشل فاسد من الوجهة الشكلية ، يجب البحث عن العلة فيه بحيث يدرس ويجوذ فى ساعات الدراسة وحدها ، حتى ندع للتلميذ الصغير وقتا للنشاط الحر بعد اليوم المدرسى الطويل .

وكم كنت أحنق وأثور عندما أرى تلميذا يستذكر فى أوقات الفسح بين الدروس ، ولكنى كنت أراجع نفسى وأتذكر أنها لعنة البرامج المطولة والمعلومات المتقطعة المتناثرة والامتحانات فى نهاية العام ، وهى لعنة تصيب المدرسين فيصبونها على أدمغة الأطفال المساكين !

* * *

ونحن نسرق طفولة الأطفال — بعد هذا وذلك — بالكتب التى بين أيديهم ، ولا سيما كتب المطالعة والمحفوظات وبالتوجيهات الخلقية والتهذيبية التى نعتمد فيها على المواعظ والحكم فى شروحنا الشفوية أو فى القطع الاملائية .

فأما تلك الكتب فهى تفرض أنها تخاطب رجالا عركوا الدهر وخبروا الناس وتمرسوا بالتجارب ، فتصب عليهم الحكم النظرية عن الشرف والمروءة والمجد وحسن التصرف ، وتنقلهم من عالمهم الساذج البرئ المفعم بالنشاط والحركة والخيال الطائر ، إلى عالم معقد متوقر متفلسف يعالج مسائل الأخلاق علاج الفلاسفة أو علاج الوعاظ !

وحتى القصص الذى يجب أن تكون غايته فى هذا الطور هى اللذة وتنشيط الخيال قد صبت عليه لعنة "المغزى" فما من قصة أو أقصوصة إلا والمقصود منها "مغزى" خلقى أو فلسفى لا يمكن أن يرق إليه ذهن الطفل ولا تعينه تجاربه على تصوره مجرد تصور ، علاوة على ما يحشى به من ألفاظ المعانى التى لا مدلول لها فى نفوس الصغار المشغوفين بالمحسوسات وبالأخيلة المنقولة عن المحسوسات .

تصور طفلا فى السنة الأولى الابتدائية بين سن السابعة والتاسعة كان يطلب منه أن يحفظ قطعة لعبد الله بن المقفع يقول فيها :

"المودة بين الأخيار سريع اتصالها ، بطىء انقطاعها ، ومثل ذلك كمثل كوب الذهب الذى هو بطىء الانكسار هين الاصلاح. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عيث ثم لا وصل له أبدا".

أليست هذه المحاولة كانت جنونا أو ما يشبه الجنون إلى عام ١٩٣٥ ؟

ثم فتح الله على كتب المحفوظات فى سنة ١٩٤٠ ، فاذا بهذا الطفل يحادث عصفورته ولكن ماذا يقول ؟ إنه يقول :

عصفورتى عصفورتى أنت الأنيس لوحدتى
طيرى إلىّ ورفرفى يا سلوتى فى خلوتى
طيرى وغنى إننى أجد الغناء مسرتى
فالطير فى تغريدها أنس يزيل كآبتى

ألم تر إذن هـذا الطفل فى السابعة من عمره ، له (وحدة) تؤنسها عصفورته ، وله (خلوة) تحتاج إلى (سلوة) وله (كآبة) يزيلها أنس التغريد ؟ ولم لا ؟ إلا يجب أن يمسخ رجلا وأن يسلق سلقا حتى تحمـل نفسه الصغيرة هموم الكبار وآلامهم وعواطفهم ليرضى بذلك كتب المحفوظات ويرتفع فى مستواها ؟ !

وهكذا تمضى كتب المطالعة كذلك فلا تحفل مطلقا بعالم الطفل الصغير ولا تحدثه بلغته ولا ما يحتويه قاموسه اللفظى والمعنوى من ألفاظ ومعان .

ثم هى فوق ذلك تجبر التلميذ على أن يقول فى بعض الأحيان غير ما يحس ، فهى تضطره أن يقول : إنه يفضل العمل على اللعب ، وإنه لا يحب صيد العصافير ولا تعذيبها ، بينما غرائزه تهتف بعكس ما ينطق به لسانه .

ومثل هذه التوجيهات يجب أن تكون بالقدوة العملية فى سن الطفولة لا بهذه الألفاظ الجوفاء . فاذا لم يكن بد من سوقها فى الكتب فلتكن فى قالب قصصى ، بدون ذكر المغزى صراحة ، بل يترك إدراكه لسياق القصة وفطرة التلميذ .

وقد ضحكت طويلا حينما قرأت لأحد مؤلفى المحفوظات قوله فى تعليق على قصة ترجمها ونظمها "تصرفت فى هـذه القصة بمـا يوجه فكرتها نحو المثل العليا للأخلاق" . وهذه القصـة فى وضعها الأول كانت مشوقة جذابة منشطة لخيال التلاميذ الصغار فاذا بهـا فى "تصرف" صاحبنا خطبة منبرية مما تضيق به الصدور . فتى يفهم هؤلاء أن المثل العليا أعلى من مستوى الأطفال ، وأنها سرقة لطفولتهم كان ينبغى أن يعاقب عليها القانون ؟ !

*
* *

وبعد فالطفولة مرحلة من مراحل العمر يجب أن يعيشها الأطفال أطفالا ، ويجب ألا نستحث فيها خطاهم ولا نعجلهم منها فى المراحل التى تليها ، فاننا لن نفلح فى انضاجهم قبل الأوان ، وكل ما نصنعه هو أن نكبت نشاط هؤلاء الصغار ونعطل غرائزهم عن العمل ونمرض أجسادهم ونفوسهم ، ونشوش أذهانهم بمعان مجردة لا يتصورون مدلولاتها .

الطفولة للعب والقفز والوثب ، وللمحسوسات والخيالات الناشئة عنهـا ، وكل ما يدرس للأطفال يجب أن يبنى على تنشيط غرائزهم وأخيلتهم ، والتحدث معهم بلغتهم وبمعانيهم القريبة ، كما تحاول المدارس الحديثة أن تصنع فى مختلف أنيقاع .

س . ق